العرب في التاريخ

٤ هل الشمريون ساميو الرس (١)

لما جاء ذكر الشمريين لاول مرة في كلام المؤرخين نقلاً عن الرقم المسمارية الكتابة ذهب العلماء مذهبين: مذهب يقول بسامية اصلهم، ومذهب يذهب بخلاف ذلك. واليوم قد ثبت لدى المحققين ان الشمريين ليسوا ساميين ، انما هم جيل من الناس كان موطنهُ الاصلي الديار الواقعة في شمالي العراق في نحو ما تسميهِ اليوم بلاد كوه قاف (وكما يقول بعضهم قفقاس او قوقاز ، نقلاً عن الافرنج) ، او فارس ، او تركستان ، او الصين ، من غير ان يعرفوا الموطن الحقيقي

وقد هبطوا العراق وهم لسان راقٍ وكتابة مسمارية محوّلة عن كتابة مصوّرة ، وآداب خاصة بهم ، نقلوها معهم الى العراق حين نزولهم فيهِ ، فتلقّاها عنهم بعد ذلك الساميون حينما جاوروهم ، وهم الذين بنوا معبد القمر الذي كشفتهُ البعثة الاميركية في مدينة « أُور » (المعروفة في العراق بالمقيّر) سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٤ . والشمريون من نفس عنصر البابليين اذ هؤلاء نشأوا من بقايا اولئك ثم امتزج الكل بالساميين واكثرهم من اشور فجاء من مزيجهم العراقيون . وقد ذكرنا هنا الشمريين لان بعضهم حسبوهم من العرب ، حتى زعموا ان اهالي « شمّر » الحاليين يرتقون نسباً الى « الشمريين » الاقدمين

وقد ذكرنا العرب في العراق لان الاقدمين اعتبروا العراق جزءاً من جزيرة العرب ولان اجدادنا كانوا مبثوثين في ارجاء العراق في كل عصر مهما تقادم عهدهُ ، بخلاف ما زعمهُ مؤرخو العرب بعد الاسلام ، اذ زعموا ان الناطقين بالضاد لم ينزلوا العراق الا قبيل الدين الحنيف . وهذا الزعم ضعيف غاية الضعف ، تفسدهُ ، الكشوفات العصرية التي ظهرت في ربوع العراق

---

(١) الرس كلمة معروفة عند عوام العراق فضلاً عن ادبائه ويريدون بها الاصل . وهو ما سماهُ الالمان والفرنسيون Race وبالعربي ان هذا الحرف من طلية الالمانية العتيقة Reizd . والذي نراه انه من اصل عربي فصيح هو الرس وهو الحدق اي الاصل الذي يبتدأ منه . كما صرح به اللغويون . على ان علماء اللغة الفرنسيين قالوا ان كلمة مأخوذة من اللاتينية radix وكل ذلك محتمل الا ان العربية تؤيده احسن تأييد لما تركب على هذه المادة من المفردات العديدة المشتقة لهذا الاصل

٥ عربة في زمن الفطحل (١)

مما يسوءنا ذكرهُ ، قبل الخوض في البحث، ان سكان جزيرة العرب لم يأذنوا للافرنج دخول ديارهم دخولاً يمكنهم من التجول فيها والتنقيب في ارجائها ، وكل من حاول تحقيق هذه النكرة ، اغفيل ، ولهذا لم نرَ من فصّل ذلك في القديم والحديث (٢)

نعم ، ان بعضهم تمكن خفية من نقل بعض رُقم لكن ذلك لا يجلي شيئاً من تاريخ تلك الربوع في قديم العهد . وقد عثرت جماعة من الباحثين على بعض نصوص تعلو انصابًا بيد انها كلها من عهد غير بعيد ولا شأن لها بالنسبة الى القرون المترامية في القدم

فعربة جزيرة كما يقول العرب ، او شبه جزيرة على ما يقول المحدثون ، قائمة في قلب العالم العتيق ، تترجح في ارجوحة مطلقة اطرافها بآسية من جهة وبافريقية من جهة اخرى ، فهي كالجسر تجمع بين بلاد وبلاد

عربة بجواياها واتجاه جبالها وهوائها تعود الى افريقية ، وهي باوديتها تتصل بالعراق وتعتبر مخدرهُ الجنوبي. وتكاد الابحر تحاصرها من كل جهة . ويدفع عنها في الشمال فلوات لا تقطع الاَّ بشق النفس وبوسائل ترهق الارواح، ولهذا عدّت دائمًا منعزلة عن بقية الدنيا ، واصبحت هي بنفسها عالمًا مستقلاً لا صلة لهُ بما حولهُ ، الاَّ بواسطة اناس أفلاذ يترددون الى الثغور للتجارة لا غير. ولذلك بقيت تلك الربوع قائمة بنفسها وبلغتها وبعاداتها وبمخلّفها وبمخلقها

عربة تخيفك اذا نظرت اليها من السواحل التي تتردد اليها سفن البحر ، لانها جرداء وصخورها البحرية حارة جدًّا، ان جئتها من جهة خليج فارس، او بحر عمان او البحر الاحمر (٣)

عربة من جهة منظرها التضريسي (الجغرافي) الطبيعي تنقسم الى بلادين متميزتين : في الجنوب الغربي نجد عريض يمتد على طول البحر الاحمر ويساوي عرضهُ على التقريب النصف الثاني من الجزيرة كلها، ويمتد في الجنوب على ساحل بحر الهند ويتصل في الشمال

---

(١) زمن الفطحل عند العرب : زمن نوح النبي (عن لسان العرب) فهو ما يسميه الافرنج بما معناه الزمن السابق لتاريخ Temps préhistorique (٢) حكى لي بعض من اثق بصدقه قال : كنا نخاف هؤلاء الناس اذ كثيراً ما يأتوننا بحجة حج او صداقة واذا هم جواسيس او اناس غايتهم معرفة اسرار التملك على البلاد . ولهذا كنا نأمر بقتل كل من يأتينا من الفرنجة او ممن نعتقد به الجاسوسية من الاتراك الذين نسميهم في بلادنا « الروم »

(٣) اختلف العلماء في اسباب تسمية هذا البحر بالاحمر ولا حاجة الى ان نقف عليها والذي عندي انه سمي بذلك لشدة حرارته على مدى السنة كلها . ومادة ح م ر في اللغات السامية تدل على اللون الذي يلي البرتقالي من الوان قوس قزح وعلى شدة الحر لانهم تصوروا ان الحرارة مولدة من النار وان لون هذه النار الحمرة او لون كالحمرة . ولهذا قرنوا حمارة الحر بزاء حمارة البرد

بهضاب تجاور خليج العقبة و بسلسلة جبال سورية . وارتفاع هذا النجد يتردد بين الالف والالفين من الامتار ، ويكون قاعدة لاطراف الحجاز واليمن وحضرموت . وفي هذه الديار جبال يرتفع راسها الى ثلاثة آلاف متر . وفي الشمال الشرقي صحراء عظيمة تكاد تنصف عربية ، فيها بعض ميل الى خليج فارس والعراق وما قلواتها الاّ ذيل فلوات جزيرة العرب . وفي نحو آخر هذه المنطقة بجوار سقط ما يكاد يشبه جزيرة من الجبال يستنزل الندى بعلوّه فتجذب تلك الرطوبة اناساً يتطلبونها

اوَ كانت عربة يابسة قاحلة على مدى الدهر ؟ كلا . ان شدة تكاثف الهواء لم تنقطع فجأة بعد الامطار المغرقة التي وقعت في عهد الفيضانات الرابعية . لا جرم ان السهول المنخفضة داهمتها المياه وهي التي حفرتها ، كما انها هي التي استأصلت ما كان ينبت فيها ، واغرقت الحيوانات والبشر التي كانت قد اوت اليها . ولم تنقطع الرطوبة دفعةً بل بقيت فيها متمادية في عدة قرون بل في مدة مئات من القرون . والشاهد على ذلك الاودية التي تخترق تلك الصحاري ، وهي لم توجد الاّ لان المياه خدّدت تلك الارض وجرت الى منخفض بلاد كلدية وخليج فارس . وفي ذلك العهد المتراخي في البعد ، ربما بقيت الجبال جرداء لاجتحاف المياه ما كان عليها ، الاّ ان الفجوات بقيت خصبة تفيض بالبركات والخيرات . وكانت حيوانات البر تنشابها ، وطير الجوّ تنزل على اغصان اشجارها الغيناء ، فكان ابن آدم يحبها ليصطاد منها ما يتمكن منهُ ليسد بهِ رمقهُ

بيد انهُ لا ينكر امر وهو ان القحولة بدت باكراً ، ولم ترَ نتائج ضررها الاّ بعد ذلك بكثير ، ولم تكن تلك اليبوسة فجأة ، بل شيئاً بعد شيء على ما تحكم بهِ الطبيعة . ولقد نقل الينا الخلف عن السلف تدرج هذه اليبوسة . فلقد روى سنكن بثن ما ذكرهُ اوسابيوس المؤرخ بما هذا معناهُ . « في الجيل الثاني كان الناس يسمون « جنًّا او جانًّا » وكانوا يطوون بساط ايامهم في فنيقية ، الاّ انهُ داهمتهم يبوسة شديدة فرفعوا اكفّهم الى الشمس التي كانوا يعتبرونها مولى السماوات الوحيد . » اه

جرت هذه الطواري في عنق الدهر ، ولقد تجددت امثالها فاضطرت القبائل الى هجر ديارها والظعن الى ربوع يرعون فيها ماشيتهم ويجنون من اشجارها ثماراً طيبة

يثبت لنا بليني «ان الرقعة الواقعة بين خليج العقبة ومدينة خارك في اصقاع كلدية كانت آهلة وكان سكانها يعرفون باسم العاميين (غير اهل عُمان الحاليين) وكان لهم فيها مدن عامرة وبلدان مهمة ، الا انهم اضطروا الى مغادرتها لفيض الماء . وهذه الرقعة هي

اليوم فلوات واسعة الأكناف تسفي الرياح رمالها ويبدو فيها الرسل اسحاب البُرد من العرب وهم يذهبون من بغداد الى الشام في تسعة ايام يوجفون فيها ركابهم ولا يرون فيها الا ماءتين والا فهي خراب يباب . » ا . كلام بلينيوس

ولنسألنّ نفسنا عن ماضي عربة في عهد الثلوج . لا غرو ان جبالها الضخمة الجليلة ، كان لها زمن كثرت فيها المثالج على حدّ ما كثرت في لبنان وديار الحبشة ، الا انها لم تدم زمناً مديداً لقربها من خط الاستواء فكان ابن آدم يأوي الى هذا الحوض الواسع حوض بلاد العرب والعراق ، على ما يرى من الادوات من العهد الشلّي (١) وهي ادوات تعثر في الصحراء الخمسة الممتدة بين سورية وعربة ، على حدّ ما نشاهد في ديار مصر وسورية وربوع الصمالي

من اين جاء الانسان تلك البلاد ؟ — فلنتدبر المواطن ليصح حكمنا فيه

٦ اول امريء سكن بلاد العرب

هل هبط عربة قادماً اليها من الشمال ؟ ام طرأ عليها من افريقية ام نشأ في قلبها ؟ قال العلامة جاك دي مرغان مجيباً عن هذا السؤال (٢)

« ان فرضنا ان الانسان الاول الذي هبط عربة جاءها من الشمال السيبري ، تعذر علينا التمسك بهذا الفرض والسبب هو لانهُ لم تكن صلة ممكنة تصل سيبرية بآسية المتقدمة منذ الازمان الكثيرة الحقانة (البليوسين) الى نهاية حقبة المثالج . فلو كان اجداد الساميين انحدروا من الشمال لكانوا في حالة البشر الثالثيين ، ولو وجد هؤلاء البشر ، لما نقلوا الى مقامهم الجديد ذرء اللسان السامي ، على ما يحكم به الطبع عفواً . فوجب

(١) العهد الشلي وبالفرنسية Chelléen نسبة الى شل Chelles من اعمال سين ومارن في فرنسة حيث رئيت — على ما يظن — بقايا ساذجة لا ريب فيها تدل على انها اعمال من صناعة البشر وهي غير مختلطة بشيء آخر من مرتبطة احسن ارتباط بالحيوانات الخاصة بهذه العهد الرابعي من طبقات الارض ، وهذه البقايا هي ظران او صوان نحتت نحتاً على مثال شظايا عظمية متطايرة وقد زلت من اظفرها الحادة ومن رؤوسها

وضعت لفظة « الشلي » بدلاً من كلمة « اشولي » acheuléen التي كان قد اطلقها العلماء في بادىء الامر على هذه الحقبة لان آثار الانسان التي وجدت في سنت اشول (في صوم من اعمال فرنسة) — واليها نسبت الاشولي — كانت بعد تاريخ البقايا التي عثروا عليها في شل

والخلاصة ان الطور الشلي في علم الانسان يبتدئ اليوم من بدء الحقبة الرابعية في علم الطبقات (الجيولوجية) كما ان الاشولي ينبثق عن ختام الطور الشلي وكادها يسبق مباشرة الطور السنري الذي كثيراً ما يصعب تمييزه عن الطورين السابقين ذكرهما

(٢) J. de Morgan. — Revue de Synthèse Historique T. XXXIV. No. 101 — 102

أن لا يكونوا — وهم في جاري الزمن الكثير الحداثة — الا خلائق في نهاية الاولية محاورات في ظاهرها الحيوانات العجم . فضلاً عن انهُ لم يكن فيهم دافع يدفعهم الى الظعن الى عربة دون الاقامة في تالد اجدادهم

« في مجرى تلك الازمنة المتمادية بشمالها كانت جبال البنطس وجبال قاف (قوقاس) ونجدا ارمينية وايران خالية من كل انيس الى ذلك العهد . تراكم عليها من الثلوج ، فلم يسكنها الناس الا بعد ان مضت عليها ادهار وكان من اللأواء مجاوزتها

« ولعل قائلاً يقول : ان الناس المحدرون اليها من هضاب آسية المتقدمة الشمالية ؟ ان هذا الامر لا يصدق الا قليلاً ، لانهم لو فعلوا ذلك لاضطروا الى قطع ارض الفراتين ، ويومئذ لم تجز تلك الرقعة ، ولاسيما كلدية ، اذ ليس ما يدلنا على عبورهم تلك الاصقاع . وعليهِ كان هذا الرأي خاطراً من الخواطر لا اساس لهُ

« وان قال قائل : ان أول سكان عربة جاؤوها من لوبية . قلنا هذا الرأي لا يرضينا ، لانهُ لا يرى في قسم او بقية المقابر لعربة ادنى امارة تشير الى عبور الساميين . فالقبائل الرابية كانت مخيمة في الارجاء التي يرى فيها الى هذا الوقت اثارها من القدموس اي الحجارة القليلة (الپاليوليثية) وكانت الاهالي متفرقة بلا ادنى ريب وكان لكل من القبائل ما يرزقها في ارضها بكل سهولة ويُسر . زد على ذلك نشوء المثالج على جبال الحبشة كان قليل الشأن ، فلم يكن ثم سوغ ليضطروا الى مغادرة ديارهم والتطويح في المجاهل . والذي نراهُ وقوع ما هو بعكس هذه القضية ، فلقد ذكر لنا التاريخ المدوَّن ان الساميين شطوا عن مرابعهم ارتياداً لمنازل يستعمرونها وهي واقعة في ما وراء البحر الاحمر في متنجع غير سامي . واذا اردت مزيد تحقيق عارض اللغات اللوبية باللغات السامية فانك لا ترى فيها ما يمت بعضها الى بعض بنسب ما . كما لا ترى فيها ما يصل بعضها ببعض في قديم الزمن ولو عكست الامر لكان الخلاف هو الاقرب الى الواقع

« فلم يبق معنا الا القول بان عربة هي الموطن الحقيقي للساميين وذلك « بعد العهد الاحدث » المعروف عند الافرنج باسم [illegible] في ذلك الربع نشأت القبائل ونمت ونشت من غير ان تؤثر عليها طارئة من الطوارئ الغريبة عن اصلهم

« ويمكن بعض علماء المصر يأت ان ديار مصر سكنها اقوام جاؤوها من بلاد فنط . وبلاد فنط هذه في نظرهم هي عربة ، ولم يكونوا من جذم سامي . ولا اظن ان هذا الرأي قائم على سند مكين ، لاسباب منها : ان اول من دفع بلاد مصر الى الحضارة كان

من الآموريين (لعلهم من الشعوبيين الاكديين) وكان الساميون عهدئذٍ قد تجولوا في عمرانهم قبل ان يهبطوا في وادي النيل . ومن تلك الادلة ايضاً ان صناعة الحجر في ديار الفراعنة ذات تشابه وتناسب بحيث اذا دخل عليها عناصر افريقية او آسوية غير سامية فلا يكون ذلك الاَّ في عهد مجاور لقدوم الشعوبيين الاكديين

« وعندي ان الديار المجاورة لوادي النيل بقيت زمناً مديداً خالية من السكان بعد الفيضانات الرابعية وقد بلغت تلك الفيضانات درجة حتى انهُ لم يستطع احد ان يعيش بعدها ، لانك اذا زرت اليوم اعلى صهور جبالها رأيت عليها غرّيلاً وليس في ربوع مصر كلها مقل يلجأ اليهِ الانسان هرباً من الغرق بخلاف ما وقع على جبال پرغور Périgord والپرانس Pyrénées وپروفنسة Provence وزد على ما ذكرهُ من الادلة ان موقع الفُنط Pount لم يعرف الى اليوم على التحقيق ، كما انهُ من الجرأة ان يوضع في جزيرة العرب اناس غير ساميين ، حين ليس لنا من البراهين لمناصرة هذا الرأي القائل الاَّ اشارات مبهمة وردت في نصوص ربما لم تفسر تفسيراً حسناً (ولا اقول لم تفسر حسناً من باب القطع) بما يتعلق ببلاد فُنط

« فيؤخذ من هذه الاعتبارات انهُ لم يعش بعد الفيضانات التي اهلكت سكان مصر والصعال وسقي الفراتين في انحائهِ الشمالية والوسطى الاَّ جماعات قليلة العدد او كثيرة لجأت الى اودية شواطئ ديار العرب فتناسل القوم وعادت البلاد آهلة . ولا جرم ان البلاد المجاورة للبحر الاحمر وجبال حضرموت كان لها ما وقع للهضاب الاوربية ، ولا أشك في ان يكشف يوماً في مغاور البلاد المذكورة آثار مصنوعة في عربة على مثال ما وُجد منها في غربي اوربا وتونس والجزائر من عهد الحجر الاول او القدموس [1] (العهد الارخيوليطي) ، اه كلام العلامة الفرنسي فهر الجابري

---

(١) القدموس في العربية : القديم من كل شيء . واظن ان الوضع الاصلي كان للقديم من الحجر ثم توسعوا في معناه . والكلمة منحوتة من « قديم » و « لطاس » بتقديم حجر . والحجر اللطاس (بتشديد الطاء) هو ما تكسر به الحجارة . ولطاس مشابهة لليونانية ليطوس اي حجر . فيكون معنى قدموس الحجر القديم . وكان من سبب اتحاد الانسان الحجر هو كسر حجر آخر دونه صلابة وهذا معنى اللطاس في العربية

وقدموس موافق لقول الافرنج « ارخيوليطي Archéolitique » وهي مركبة من ارخايوس اي قديم وليطوس اي حجر . ومحصله الحجر القديم كما هو معنى القدموس . وللافرنج لفظة اخرى ترادف المذكورة وهي « paléolithique پاليوليطي » المنحوتة من اليونانية پاليوس اي قديم وليطوس اي حجر . ومحصل معناها يؤدي ما ادته من المعنى كلمة « ارخيوليطي » اليونانية وقدموس العربية والمراد بذلك عند الفلكيين (الجيولوجيين) اقدم عصر من اعصار الحجر